مجلة الرائد

العدد : ٢٤١ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٤ هجري ٢/٢٠٠٣ ميلادي

عنوان المقال : دروس من الماضي	الكاتب : د. أحمد فوزي

{ ... ولقد افتتح هولاكو حملاته على البلاد الإسلامية بتوجيه نداء إلى جميع حكام البلاد الإسلامية الشرقية - وما أكثرهم - ومن جملتهم خليفة بغداد المستعصم باللّه ، أن يساعدوه بالمال والرجال والسلاح من أجل إخضاع واحتلال قلاع الملاحدة المنتشرة في شمالي إيران الحالية .. فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر أو أهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة اللّه من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم ..

ولقد ثبت أن قليلاً من الحكام المسلمين لبوا نداء هولاكو وساهموا في حملته المشهورة هذه . ولذلك امتلأ غضباً عليهم ، وبعد أن انتهى من أمر الملاحدة وقلاعهم ، وجه سهام نقده وصب جام غضبه على الخليفة باعتباره أكبر الحكام المسلمين في العراق مقاماً وقوة ، ولسلطته الروحية ومكانته المقدسة لدى المسلمين ، فأرسل له رسالة يعاتبه على عدم إرسال الجنود للمساعدة في فتح قلاع الملاحدة ، ويذكر له أنه مهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد ، فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفي معها نور الشمس الساطعة . وفي هذا اعتراف صريح بتفوق وسمو أسرة آل العباس على أسرة جنكيزخان ، مع إمكانية أن يلمع هولاكو أو أحد أفراد أسرته أكثر من لمعان أحد أفراد أسرة آل العباس . ثم بعد ذلك ينتقل معه إلى التهديد ، ويذكر له أن كثيراً من السلالات حكمت إلى جانب الخليفة في بغداد بعد أن احتلها من أمثال السلاجقة والديالمة والأتابكة ، فكيف تغلق بغداد في وجه المغول وهم أقوى من كل أولئك ؟! بعد ذلك يطلب من الخليفة الخضوع والطاعة ، وآية الطاعة هدم الحصون وطم الخنادق وإرسال وفد مؤلف من ثلاثة موظفين لمقابلة هولاكو ، وتقديم الخضوع والولاء له . وإذا رفض الخليفة ذلك فالحرب بين الطرفين ، والويل للخليفة وشعبه .

ولقد كانت هذه الرسالة فاتحة تراسل بين الخليفة وهولاكو ، وأظهر الخليفة جهلاً بالقوى التي يواجهها ويحاربها ، كما أظهر غروراً وعجزاً كبيرين . فقد لبس ثوب النمر في رسالته الجوابية إلى هولاكو ، وهو عاجز عن أن يلبس ثوب الهر . فقد وصف الخليفة هولاكو بالشاب الحدث المتمني قصر العمر .. ثم بعد ذلك يقول : « إن عنده من السلطة والاستطاعة ما يمكنه من جمع الشتات وحسم الأمور

في إيران . ثم بعد ذلك يتوجه إلى توران ويضع كل إنسان موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب ، غير أني لا أريد الحقد والخصام .. » .

ولقد رد هولاكو رداً عنيفاً على رسالة الخليفة هذه وعاتبه بشدة وأخبره أنه زاحف على بغداد بجيش لا قبل له به . ولقد امتاز رد الخليفة الثاني على رسالة هولاكو الأخيرة باستشهاده بحوادث التاريخ ليثبت لهولاكو أن بني العباس مكلؤون بالعناية الإلهية ، وأن كل من قصدهم بأذية لا بد أن يقصم ، وقد استشهد الخليفة بأعمال يعقوب بن الليث الصفَّار وأخيه وبفتنة البساسيري ومحاولته خلع الخليفة ونقل الخلافة إلى الفاطميين في مصر ، وبأعمال السلطان السلجوقي محمود ومحاربته الخليفة وكيف أراد احتلال بغداد وعجز عن ذلك . كذلك ذكر الخليفة محاولة خوارزمشاه احتلال بغداد وخذلانه وخيبته ، ليصل إلى تقرير حقيقة ثابتة في رأيه : وهي أن العناية الإلهية تحرسه وتحرس أسرة العباس : فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر .

ويبدو أن الخليفة كان معتقداً حقاً بحماية إلهية له ولأسرته ، ولذلك تصرف بهذا الشكل الاعتباطي ، ولكنه كان واهماً في ذلك ، ودفع ثمن هذا الوهم حياته وعرشه وسلالته كلها } .